علماء توات في كتابات مؤرخي إفريقيا جنوب الصحراء – كتاب "تاريخ السودان" لعبد الرحمن السعدي أنموذجاً–

Twat scholars in the writings of historians of sub-Saharan Africa -The "History of Sudan" book by Abdul Rahman Al-Saadi as a model-

عبد المالك طاهري[1*]
جامعة أحمد درايعية، أدرار (الجزائر)
abdelmalek.tahri@univ-adrar.edu.dz

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2024/02/10
تاريخ القبول:2024/06/30

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

الملخص:

شكلت حواضر السودان الغربي أحد أهم المراكز العلمية في شمال إفريقيا، مما جعلها محجاً لكثير من الطلبة والعلماء من مختلف بقاع العالم الإسلامي، ومنهم علماء توات الذين كان لهم حضور قوي ومتميز في تلك المنطقة، وشكلوا همزة وصل ونقطة التقاء بين حاضرة توات وحواضر السودان الغربي.

وقد جاء ذكر العديد من العلماء التواتيين في كتابات الرحالة والمؤرخين من السودان الغربي، ومنهم عبد الرحمن السعدي في كتابه "تاريخ السودان" الذي ترجم فيه لما يقارب مائتي عالم عاشوا وألفوا في تلك المنطقة ومنهم العديد من العلماء التواتيين، ويعتبر شهادة تاريخية تضاف للتعريف بمكانة علماء توات في السودان الغربي.

الكلمات المفتاحية: إفريقيا جنوب الصحراء؛ توات؛ العلماء، السعدي؛ السودان الغربي.

ABSTRACT

The cities of Western Sudan formed one of the most important scientific centers in North Africa, which made it a pilgrimage site for many students and scholars from different parts of the Islamic world, including the scholars of Tawat, who had a strong and distinguished presence in that region, and formed a link and a meeting point between the metropolis of Tawat and the cities of Western Sudan.

Many Twatian scholars have been mentioned in the writings of travelers and historians from western Sudan, including Abd al-Rahman al-Saadi in his book "The History of Sudan," in which he translated nearly two hundred scholars who lived and composed in that region, including many Twatian scholars, and it is considered a historical testimony added to the definition of the position of the Tawat scholars in western Sudan.

Keywords: Sub-Saharan Africa; Twat; Scholars; Al-Saadi; Sub-Saharan Africa.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

ذكرت العديد من البحوث أن علماء توات كانوا يتميزون بكثرة الحركة، وبعدم الاستقرار في مكان واحد، وأن جهادهم في الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه كان العامل الرئيسي في هجرتهم نحو غرب إفريقيا، وكان لهم دور متميز في نقل الإشعاع الثقافي الإسلامي إلى الشعوب الإفريقية، حيث يؤكد أغلب المؤرخين من إفريقيا جنوب الصحراء أنه بجهود العلماء تغلغلت الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي. وقد هاجر العديد من العلماء من توات إلى حواضر السودان الغربي وكان لهم دور بارز في تلك المنطقة وظل ذكرهم غائب لدى المؤرخين والرحالة من توات، لكن تم ذكرهم والتعريف بهم من طرف المؤرخين والرحالة في السودان الغربي.

وقد ورد ذكر العلماء التواتيين في كتابات العديد من المؤرخين العرب من إفريقيا جنوب الصحراء، منهم البرتلي محمد ابن عبد الله، في كتابه المسمى الفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، والذي أورد فيه حوالي أربعين عالماً تواتياً من أهل الفقه والفضل والولاية كان لهم تأثير واضح في بلاد التكرور، وكعت محمود في كتبه تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وكذلك الشيخ أحمد بابا التمبكتي في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وبين أبرز المؤرخين والرحالة من السودان الغربي الذين أوردوا أسماء العلماء التواتيين عبد الرحمن السعدي في كتابه تاريخ السودان الذي عرف فيه بالعديد من العلماء التواتيين وعلى رأسهم الشيخ سيدي أبو القاسم التواتي.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى معالجة إشكالية أساسية متعلقة بإبراز شهادة أحد الكتاب والمؤرخين من إفريقيا جنوب الصحراء الذين كان لهم الفضل بالتعريف بالعلماء التواتيين في منطقة السودان الغربي، فكانت كاتبته شهادة تاريخية حية لدور العلماء التواتيين في تلك المنطقة. وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التالية: هل ورد ذكر العلماء التواتيين عند عبد الرحمن السعدي عند ذكره لمنطقة السودان الغربي؟ ما مدى إسهام وتأثير علماء توات في الحياة العلمية تلك المنطقة؟ وما المكانة التي حظي بها هؤلاء العلماء لدى عامة الناس وأمراء المنطقة؟

2. لمحة مختصرة عن منطقة توات:

تقع توات في الجهة الغربية للصحراء الجزائرية، التي هي امتداداً للصحراء الإفريقية الكبرى، إذ تبعد أقرب نقطة عن العاصمة حوالي 1500كلم، تتربع على مساحة تصل 427963 كم^2، وتشمل هذه المنطقة على عدد من الواحات والمدن والقصور، تزيد عن 350 واحة متناثرة (فرج، 2007، صفحة 12)، وتمتد فلكياً بين خطي طول 04 درجة غرباً و01درجة شرقاً، وبين دائرتي عرض 30 درجة و26 درجة شمالاً (حوتية، 2007، صفحة 02)، ويحدها من الجنوب صحراء تانزروفت، وواد قاريت وجبال مويدرا، ومن الشرق العرق الشرقي الكبير، وغرباً واد الساورة وروافده، وتنقسم توات إلى ثلاث جهات محلية متباينة هي:

- منطقة قورارة عاصمتها تيميمون، وتمتد من تسابيت إلى تبلكوزة إلى تسابيت.
- منطقة توات الوسطى عاصمتها تمنطيط ثم تيمي ثم أدرار، وتمتد من رقان إلى تسابيت إلى رقان.
- منطقة تيديكلت وتمتد من رقان إلى فقارة الزوى، وعاصمتها عين صالح.

وتقع توات في عمق الصحراء ضمن مظهر تضاريسي تغلب عليه الرمال، ويتميز مناخها بالجفاف وشدة الحرارة صيفاً والبرودة القارسة شتاءً، والأمطار فيه شبه معدومة، وأما رياحه فالغالب عليها رياح الشهيلي والرياح الجنوبية

الشرقية "sirocco"، أما الغطاء النباتي فيميزه زراعة النخيل المنتشرة بشكل واسع، لتحملها الحرارة الشديدة، والنباتات الشوكية، كما تتوفر على الثروة الحيوانية المتمثلة في (الماعز والأغنام والجمال) (CAMBON، 1897، صفحة 127).

لقد وردت عدة روايات حول تسمية توات، وتضاربت الأقوال بين الرواية المؤسسة على أساس علمي يعتمد على التحليل المنطقي لأصل التسمية، وأهم هذه الروايات رواية أبي عبد الله الأنصاري صاحب كتاب "فهرست الرصاع" الذي يرى أن توات اسم أمازيغي، لأحد البطون المنحدرة من قبيلة الملثمين، سكان الصحراء، أما عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب "تاريخ السودان" يرى أن التسمية ترتبط بقصة سلطان مالي "كنكان موسى" (مؤنس، 2003، صفحة 07) في رحلته إلى الحج، حيث أنه مر بالمنطقة فأصابه وجع في رجله وكان تعليل السعدي أن ذلك في لغة "سنغاي" تعني توات.

أما مارتان (Martin) فيرى أن كلمة توات تعود في أصولها إلى كلمة "ouasis" الإغريقية (Martin, 1908, p. 115)، وتعني الواحة، وهي مركبة من مقطعين، "ou" الذي يتطابق "oua" الأمازيغية الذي مفرده يتم بإضافة الحرف الأمازيغي" ث"، أي "t" لطرفي المفردة "oua" على لهجة زناتة، فتصبح،"touat" بمعنى الواحة في اللغة الأمازيغية. وإلى ذلك يذهب روكليس (Roclesse) ومندوفيل (Mandoveil) حيث أخذ الأول برواية مارتان، الذي اعتبر" توات "كلمة أمازيغية على لهجة زناتة. بينما ذهب الثاني إلى اعتبار أن المصطلح أمازيغي ولكن على لهجة صنهاجة، كما أنها لا يعني الواحة (vivarer، 1896، صفحة 03)، وإنما أطلقه توارق صنهاجة على المنطقة الممتدة على طول واد مسعود، الذي هو امتداد لواد الساورة.

في حين يذهب محمد بن عومر البداوي إلى أن عقبة بن نافع الفهري عند غزوه بلاد المغرب، وأثناء عودته بواد نون ودرعة وسجلماسة، ولما وصلت خيله توات سنة62 هـ/681 م، سألهم عن هذه البلاد (أي توات)، هل تواتي لنفي العصاة الخارجين عن سلطته؟ فأجابوه بأنها تواتي، فأنطلق اللسان بذلك. أما محمد بن عبد الكريم البكراوي فقال أن القائد الطاهر بن عبد المؤمن وعلي بن الطيب والطاهر كانا يجمعان الأتوات من سكان المنطق عام 595هـ/1169م فسمي أهل هذا القطر ببلاد الأتوات، فألقيم المضاف إليه مكان المضاف الذي حذف، فأصبحت تسمى توات. وأما رواية مولاي أحمد الإدريسي الطاهري فتتوقف عند المعنى اللغوي الظاهري، على أن المنطقة كانت تواتي للعبادة (الطاهري الإدريسي، 2010، صفحة 57).

3. التعريف بعبد الرحمن السعدي ومؤلفه تاريخ السودان:

هو الفقيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر بن الحاج المتوكل، لقبه السعدي. ولد سنة (1004هـ/ 1596م) بمدينة تمبكتو[1] في مالي (كحالة، 1993)، التي كانت في أوج ازدهارها العلمي قبل غزو المنصور السعدي لمملكة سنغاي سنة 1591م.

حفظ القران الكريم في صغره، وتتلمذ على عدد من الشيوخ والعلماء بتمبكتو على رأسهم العالم الشهير أحمد بابا التمبكتي[2]. ولما أتم تعلمه بدأ التدريس والوعظ والإرشاد على طريقة العلماء في زمانه، ولم يمكث في تمبكتو لوحدها،

حيث رحل إلى العديد من البلدان في المنطقة للتعليم والتثقيف، كما كان يفعله العيد من العلماء الذين زاع صيتهم في زمانه (زبادية، د.س، صفحة 114).

وفي سنة 1035هـ/ 1626م تم تعيين عبد الرحمن السعدي إماماً وخطيباً للمسجد الكبير في مدينة "جنّي" [3] الواقعة إلى الجنوب من تمبكتو على نهر النيجر، وكانت مدينة هامة في ذلك الوقت خاصة لتجارة القوافل تكاد تنافس مدينة تمبكتو في ازدهارها التجاري والعلمي. وبقي السعدي خطيبا في المسجد الكبير لمدينة جنّي لمدة عشرين سنة، مما يوحي بأنه كان أهلاً لهذه المهمة التي لم تكن تعطى إلا للعلماء البارزين في تلك الفترة من الزمن (أبا الصافي جعفري، 2000، صفحة 379).

وفي سنة 1055هـ/ 1646م استدعاه الباشا محمد بن عثمان حاكم تمبكتو وجنّي ليعينه ناظراً للخارجية لديه، وكانت هذه الوظيفة سامية جداً حيث يقوم صاحبها بالتنقل بين سائر المدن والقرى التابعة للأمير، وذلك للالتقاء بالسكان وحل مشاكلهم باسم الأمير، كما أنه على حامل هذه الوظيفة أن يكون مطلعاً على عادات الناس وتقاليدهم، ويكون ملماً بمجريات الأمور في البلاد بصورة عامة، والطريقة المطلوبة فيما يخص التسيير وفض النزاعات بين الأفراد والقبائل على الخصوص (زبادية، د.س، صفحة 115).

هذه الوظيفة التي شغلها عبد الرحمن السعدي لعدة سنوات جعلته يستفيد من تجاربه فيها، ودعته إلى تأليف كتابه الشهير عن تاريخ بلاد السودان الغربي بعنوان: "تاريخ السودان"، والذي يعتبر من أهم الوثائق التاريخية عن تاريخ تلك المنطقة من بلاد الإسلام في تلك الفترة.

وقد استغرق عبد الرحمن السعدي في تأليف كتابه هذا مدة قصيرة نسبياً، حيث ذكر أنه بدأ في تأليفه يوم 05 ذي الحجة 1055هـ/ 22 يناير 1646م، وقد وافته المنية وهو لم يتمكن من إتمامه سنة 1066هـ/ 1655م (الزركلي، 2002، صفحة 313). وقد ذكر السعدي في مقدمة كتابه الأسباب التي دفعته إلى الكتابة في هذا الموضوع قائلاً: " ولما رأيت زوال هذا العلم ودروسه، وفناء دينارة وفلوسه، وأنه كثير الفوائد، جزيل العوائد، لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه، ووفياتهم وتواريخهم، فاستعنت بالله العلي العظيم في كتابة ما رويت من ذكر ملوك السودان أهل صنغاي، وسيرهم وأخبارهم وغزواتهم، وذكر تمبكتو ونشأتها ومن حكمها من الملوك، وذكر بعض الصالحين والعلماء الذين سكنوا فيها..." (السعدي، 1981، صفحة 02).

وقد اشتمل كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي على عدة مواضيع أهمها: ترجمة لما يقارب مائتي علم سوداني عاشوا وألفوا في تلك المنطقة، والممالك الإسلامية التي قامت في السودان الغربي حتى تلك الفترة، وموضوع نشأة المدن الإسلامية وتطورها في بلدان السودان الغربي (أبا الصافي جعفري، 2000، صفحة 380)، كما ترجم للعديد من الوعاظ والقضاة وأئمة المساجد والخطباء الذين عرفتهم تلك البلدان، كما تكلم عن حياة السلاطين والأمراء وسلوكهم في تلك البلدان، بالإضافة إلى القبائل الكبيرة في المنطقة وسيرتها مثل قبائل الصنغاي وقبائل الماندينق والسنكوريين والفولانيين والطوارق.

يعتبر كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي من المصادر المهمة والتي لا يمكن لأي باحث في تاريخ منطقة السودان الغربي أن يستغني عنه، رغم غموض بعض العبارات وعدم الاستقامة في بناء الجمل، وأسلوبه في الكتابة الذي لا يرقى إلى أسلوب المؤرخين. وقد أكد السعدي من خلال كتابه أن منطقة السودان الغربي جزء مهم من العالم العربي

الإسلامي، سواء من حيث الدين أو الثقافة. نشر الكتاب في باريس، وحققه وترجمه للفرنسية الأستاذ هوداس سنة 1981م.

وتعتبر توات من أهم المناطق التي جاء ذكرها في كتاب عبد الرحمن السعدي، باعتبارها متصلة بكثير من الممالك الإسلامية في إفريقيا الغربية، وكذلك لدور علمائها وفقهائها في تنشيط الحياة الفقهية والعلمية في المنطقة، وقد جاء ذكر توات وعلمائها في حوالي 25 مناسبة، حيث جاء حديثه عن منطقة توات لدى تعرضه لرحلة السلطان كنكان موسى[4] إلى الحج حيث انه مر بالمنطقة فأصابه وجع في رجله، وكان تعليل السعدي أن ذلك في لغة "سنغاي" تعني توات. حيث يقول السعدي في الباب الثالث من كتابه: "ومشى بطريق والات وعلى موضع توات، فتخلف جمع من أصحابه لوجع أصابه في رجلهأصابه لذلك المشي تسمى في كلامهم توات. فانقطعوا بها و سكنوا فيها، فسمي الموضع بهذه العلة" (السعدي، 1981، صفحة 07).

ويتحدث عبد الرحمن السعدي عن توات ثانياً في الباب السابع لما تكلم عن مدينة تمبكتو، حيث يقول: " ... وسكن فيها الأخيار من الصالحين والعلماء وأصحاب الأموال من كل القبائل، ومن كل البلدان، من أهل توات ومصر وغدامس وفزان وفاس ودرعة إلى غير ذلك..." (السعدي، 1981، صفحة 21). كما يذكر السعدي أن التواتيين كان لهم جامعاً خاصاً بهم يحمل اسمهم "جامع التواتيين"، وقد تربع على عرش الإمامة فيه جملة من العلماء من مختلف الأقطار.

كما يشير السعدي في كتابه إلى أن التواتيين اندمجوا في الحياة السياسية والاجتماعية مع أهل السودان الغربي، حيث أنهم كانوا يبايعون الحكام جنباً إلى جنب مع القبائل الأخرى، ويذكر السعدي أنهم في طليعة القبائل لدى مبايعة السلطان مولاي أحمد، حيث يقول في معرض ذلك في الباب الرابع والعشرون: "ثم برَّح بأن يجمع كل الناس غداً في جامع سنكري للحلوف لبيعة السلطان مولاي أحمد. فاجتمع كل الناس، فحلف التواتيون والوجليون والفزانيون في اليوم الأول، وهو يوم الاثنين ...ثم حلف الودانيون والولاتيون ومن جانسهم في اليوم الثاني الثلاثاء..." (السعدي، 1981، صفحة 169).

4. ذكر علماء توات عند عبد الرحمن السعدي:

ذكر العديد من المؤرخين أن علماء توات كانوا يتميزون بكثرة الحركة، وعدم الاستقرار في مكان واحد، وذلك في سبيل نشر الإسلام وتعاليمه خاصة في إفريقيا السمراء، وكان لهؤلاء العلماء دور مهم في نقل الإشعاع الثقافي الإسلامي إلى شعوب تلك المنطقة، وبفضل تلك الجهود التي قام بها العلماء والفقهاء[5] تغلغلت الثقافة العربية والإسلامية في إفريقيا. وقد ورد ذكر علماء توات عند العديد من المؤرخين والرحالة في منطقة السودان الغربي، من أمثال: البرتلي أبو عبد الله الولاتي في كتابه فتح الشكور، الذي ذكر فيه أسماء حوالي أكثر من أربعين عالماً من توات كلهم من أهل الفقه والولاية والصلاح ممن كان لهم تأثير كبير في بلاد التكرور (البرتلي، 1981، صفحة 97)، وأحمد بابا التمبكتي في كتابه نيل الابتهاج في تطريز الديباج، وغيرهم. إلا أن معظم هؤلاء المؤرخين ركزوا على شخصية الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي[6] الذي وصلت سمعته الآفاق. لكن عبد الرحمن السعدي ذكر شخصيات علمية أخرى لم تذكر في تراجم المؤرخين. حيث يذكر السعدي أنه كان في تمبكتو لوحدها خمسين عالماً من توات. أهم العلماء التواتيين عند عبد الرحمن السعدي:

– سيدي أبو القاسم التواتي: عالم وفقيه، عُرف في توات بغزارة علمه، سافر إلى تمبكتو واس توطن بها (مقلاتي و جعفري، معجم أعلام توات، د.س، صفحة 64)، وكان من أشهر أئمة جامع [7] سنكري[8] ومن تولى الإمامة فيه من العلماء (أبا الصافي جعفري، 2000، صفحة 381)، قدم مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت وابتنى داراً بالقرب من المسجد الجامع بتمبكتو وظل هناك إلى غاية وفاته، وقد كان محل احترام وتقدير الجميع (البرتلي، 1981، صفحة 97)، وكان السلطان (الحاج موسى أسكيا) يحرص دائماً بعد كل صلاة على ملاقاته والتسليم عليه والتبرك به. وأورد السعدي ذكره بعد ذكر عبد الله البلبالي قائلاً: " ...وما خلفه في الإمامة، والله اعلم إلا الشيخ الصالح الفاضل الزاهد العارف بالله تعالى العابد الولي سيدي أبو القاسم التواتي. قد سكن في جهة القبلة جوار المسجد الجامع، ليس بين داره وبينها إلا الطريق الضيق النافذ، بعد ما بنى محضراً في قبالة المسجد ...، وفيها يدرس الأطفال ..." (السعدي، 1981، صفحة 58).

ويذكر السعدي أن الشيخ أبو القاسم التواتي كانت له فضائل كبيرة، ومكانة عالية في المجتمع واعترف له أهل الفضل من عامة الناس والعلماء والملوك بذلك (جعفري، 2009، صفحة 58). حيث يقول عن فضائله: " والسيد أبو القاسم هذا هو الذي أحدث تلك المقبرة التي هي أهم المقابر اليوم بعد ما امتلأت المقبرة القديمة التي قرب المسجد وجعل عليها السور...وهو الذي ابتدأ قراءة الختمة في المصحف بعد الجمعة ، وحبس أمير المؤمنين الحاج محمد أسكيا تابوتاً فيها ستون جزءاً من المصحف في ذلك الجامع لأجل هذه الختمة، وبقيت تقرأ..." (السعدي، 1981، صفحة 58).

أما عن مكانة الشيخ أبي القاسم التواتي يقول السعدي: " ... صلى الأمير الجمعة يوماً فيها، فجلس بعد السلام إلى أن يسلم على الإمام الشيخ سيدي أبي القاسم التواتي... فبعث أخاه ليعلمه بإتيانه للسلام عليه، فوجده في قراءة المدح، فوقف ينتظر فراغهم..." (السعدي، 1981، صفحة 58). وعن كراماته يقول السعدي: " كان ذا بركات وكرامات، يطعم الطعام، خاصة للمداحين لشدة محبته لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وم كان المدح قريب لداره، ومتى سمعهم يمدحون خرج إليهم بالرغائف السخونة ....، ولو كان في آخر الليل حتى ظهر أنها من الكرامة" (السعدي، 1981، صفحة 58).

وعن وفاة الشيخ أبي القاسم، ومكان دفنه ومن دفن معه في هذه الديار من العلماء التواتيين، يشير عبد الرحمن السعدي قائلاً: "... وسمعت من بعض العلماء الذي له علم واعتناء بمعرفة التواريخ أن سيدي أبا القاسم توفي في العام الخامس والثلاثين بعد تسعمائة، ودفن في المقبرة الجديدة، ودفن معه العديد من الصالحين، وقيل أن معه خمسين رجلاً من التواتيين أمثاله في العبادة والصلاح... وكذلك المقبرة القديمة فيها الكثير من الصالحين" (السعدي، 1981، صفحة 60).

– ابن أبي القاسم التواتي: وهو أبن الشيخ سيدي أبو القاسم التواتي –المذكور آنفاً–، ولم يذكر السعدي ولا غيره من المصادر التاريخية اسمه ولا تاريخ وفاته (مقلاتي و جعفري، معجم أعلام توات، د.س، صفحة 61)، لما توفي والده كان في توات، وبعد حوالي شهرين من وفاة والده جاء إلى تمبكتو (جعفري، 2009، صفحة 152). لكن مكانة الشيخ أبو القاسم التواتي وتأثيره ظلت باقية في أهل السودان حتى بعد وفاته، ولأن ابن أبي القاسم التواتي لم يكن حاضراً في تلك الفترة، اتفق أهل الجامع الكبير على الفقيه العالم "أحمد ولد نانا شرك" إذ رفعوا أمره إلى أبي البركات الفقيه القاضي

فصار أماماً في الجامع الكبير خلال هذه المدة. وبعد مجيء ابن الشيخ أبي القاسم التواتي من توات أراد أهل الجامع أن يجعلوه أماماً عليهم خلفاً لوالده (أبا الصافي جعفري، 2000، صفحة 384). وذلك لما رأوه فيه من علم وخير وصلاح وزهد وورع وتقوى. لكن الفقيه أبي البركات رفض أن يعزل إماماً بعد توليته لينصب إماماً آخر مكانه فرفض طلبهم هذا.

ويقول السعدي عن هذه الحادثة: " ...بعد وفاة الإمام سيدي أبي القاسم تواطأ أهل الجامع الكبير على العالم أحمد ولد نانا شرك، فرفعوا أمره إلى أبي البركات الفقيه القاضي محمود، ...وصار إماماً في الجامع. وبعد شهرين من إمامته جاء ابن أبي القاسم من توات، فذهب أولئك الجماعة إلى القاضي فقالوا: نريد أن تجعل لنا ابن الشيخ أبو القاسم إماماً فقال لهم إن لم تخرجوا عني أسجنكم جميعاً... فعاد إلى توات، وبعد أشهر توفي الأمام أحمد المذكور ..." (السعدي، 1981، صفحة 60).

– الشيخ سيد علي التواتي: شخصية مهمة وفقيه وعالم من توات كان له دوراً كبيراً في منطقة السودان الغربي، كما كان مقرباً من الحكام والمحكومين يسدي لهم النصح، ويستشيرونه في أمر دينهم ودنياهم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، مسموع الكلمة عند عامة الناس، صاحب همة عالية. كما كان رحمه الله عالماً زاهداً صالحاً ورعاً، ومحل تقدير واحترام من الجميع (أبا الصافي جعفري، 2000، صفحة 386).

ويقول عنه السعدي في مؤلفه: "...والمعلوم أنه لم يجد مسلكاً منه، فرجع إلى بلاد تنبكتو، وأحلف مع الباشا محمود الجيش كله على أنه لا يفر منهم أحد إليه ... فحلفوا على ذلك جميعاً، ثم جاء إلى سيد علي التواتي فوعظه وصبَّره وقال له: لا تخسر هذا الجيش ...، لأنه صائر إليك إن شاء الله. .. فترخي ورد على بن عبيد المذكور ..." (السعدي، 1981، صفحة 79).

– أحمد بن عبد العزيز القوراري (نسبة أقليم قورارة بمنطقة توات): وهو من علماء توات المرموقين، رحل إلى تمبكتو واستقر بها، وأصبحت له مكانة كبيرة (مقلاتي و جعفري، معجم أعلام توات، د.س، صفحة 87). ويذكر السعدي أنه من السادة الفضلاء التواتيين ومن أهل والمكانة والجوار والتقى والزهد، وكان مصاحباً للفقيه سيدي محمد بن الفقيه أحمد بابا التمبكتي (مقلاتي و محفوظ، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية، 2009، الصفحات 137- 138)، حيث يشير السعدي في الباب الثالث والثلاثون الذي جاء بعنوان: ذكر الباشوات من عام 1039هـ إلى عام 1042هـ (أبا الصافي جعفري، 2000، صفحة 387)، إلى أن بعض السلاطين وهو الباشا علي بن عبد القادر حاكم تمبكتو، استجار لدى قدومه إلى توات سنة 1041هـ، في طريقه إلى الحج ببعض السادة الفضلاء التواتيين فأجاروه ومنعوه من فتك أعدائه الذين لحقوا به وأرادوا قتله في الطريق، وقبلوا شفاعتهم فيه، ولما نجى أكرمهم وأعطاهم مالاً كثير.

ويشير السعدي إلى هذه الحادثة بقوله: " ... ومشى على طريق منطقة توات، فرافق السيد المبارك الزاهد التقي الزاهد أحمد ابن عبد العزيز الجراري والفقيه محمد بن الشيخ أحمد بابا...فلما وصلوا إلى توات لحقهم بهم هنالك الفلاني بن عيسى البربوشي وأصحابه، ... فطاحوا عليهم ليلاً وأرادوا قتله، فهرب إلى السيدين فدخل عليهما واستجارهما فجعلوا نفسه في حرمتهما، ... ولكن صدوه عن الحج بعد ما قتلوا من قتلوا من أصحابه.." (السعدي، 1981، صفحة 233).

5. إسهامات علماء توات في السودان الغربي:

لقد كان لمشائخ منطقة توات و علمائها دوراً متميزاً في إيصال الإشعاع الإسلامي الثقافي إلى بلاد السودان الغربي، إذ يؤكد العديد من المؤرخين ومنهم عبد الرحمن السعدي أنه بجهود العلماء تغلغلت الثقافة العربية والإسلامية في غرب إفريقيا، ومما لا شك فيه أن هذا الإنجاز العلمي لم يكن عن طريق الصدفة، بل كان نتيجة أعمال وجهود مضنية لهؤلاء العلماء، وجهاد علمي مستمر اضطلع به رجال ذوو ملكات فكرية وقدرات معينة وهبها الله لهم ليكونوا صانعي هذا الرقي العلمي في تلك الصحراء الكبيرة من أرض العالم الإسلامي.

ويمكن تعريف الشخصية العلمية التواتية أنها ذلك الفرد الذي تربى في كنف العلم و حاز حظا وافراً منه وعمل عليه، واصطبغ بصبغة بيئته علمياً وفكرياً وتأثر وأثر حتى اكتسب ما يعتبر ميزة له عن غيره، فبالرغم من الظروف القاسية والمسافات المتباعدة تَكَّون في تلك الصحراء إشعاع علمي وصل صداه إلى العديد من حواضر السودان الغربي، وأدى إلى توسع مساحة أرض الإسلام والقضاء على عبادة الأوثان ونشر مبادئ وتعاليم الإسلام وتعاليمه وأخلاقه الفاضلة (بلعالم، 2016/2015، صفحة 257). ولم يكن هذا العمل بسيطاً أو سهلاً للغاية إذ لم يتصدى لذلك رجال ذوو قامات سامقة عملوا على مدار سنوات طوال حتى كان ذلك النشاط الثقافي في تلك المنطقة مضاهياً لأنشطة مماثلة في حواضر العالم الأخرى، ولازال صداه متوارثاً إلى غاية اليوم.

كما انتشرت بفضل مجهودات العلماء المهاجرين من توات الكتاتاتيب القرآنية ومعاهد العلم انتشاراً كبيراً في العديد من مدن السودان الغربي مثل كانم وبرنو، فبعثت الحركة الثقافية العربية والإسلامية وشملت جميع أرجاء منطقة السودان الغربي، فقد ظل العلماء يقومون بمهمة كبيرة في نشر العلم. كما أن التعليم قد بلغ مستوى رفيعاً من التقدم، ويرجع ذلك إلى الرحلات المتكررة التي قام بها العديد من العلماء للمنطقة خاصة من توات، ويتحدث أحد المخطوطات ينسب إلى القرن الخامس عشر ميلادي عن رسالة بعث بها ملك برنو " كداي– kadai " سنة 1440م إلى بعض العلماء البارزين من توات يطلب منهم إرسال بعثات علمية إلى برنو (كاني، 1987، صفحة 21).

كما أن انشغال العلماء التواتيين بالتدريس كان متواصلاً حيث صرفوا من أجله جل الأوقات، بل يستغرق فيه بعضهم وقته كله، فلا يتوقف عن تدريسه ونشره، ولا يأخذ عطلة لأجله، كما هو حال الكثير منهم على غرار أبو القاسم التواتي، بل أن العديد من العلماء التواتيين لم يكتف بالتدريس داخل الوطن فقط، بل كوَّن ودرس تلاميذ خارج الوطن سيكون لهم ارتباط وتواصل علمي مع توات فيما بعد، السبب الذي أدى إلى الارتباط والتواصل الثقافي بين توات وغيرها من الحواضر العلمية. كما أن هذا التحول في الأداء كان له عظيم الأثر في العلمية بالسودان الغربي، حيث أدى إلى إنجاب تلاميذ نجباء وفقهاء كان لهم ولاشك دور كبير في مختلف مجالات الحياة بالمنطقة، إذ يصدق فيهم قول الرسول الله عليه الصلاة والسلام: " إذا ما مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوا له" (رواه مسلم).

وبالرغم من أن التدريس والتعليم يختص بفئة معينة وهم طلاب العلم ومريديه ، إلا أن علماء توات لم يكتفوا بذلك فحسب بل عملوا على إرشاد وتوجيع عامة الناس من غبر طلبتهم، وهذا تماشياً مع الواجب الديني الملقى على عاتقهم في وجوب إرشاد الناس، حيث على العالم وعظ الناس وتذكيرهم وتخويفهم ويذكرهم ويخوفهم ولا يقتصر معهم على مجرد معرفة أحكام الشرع وحدودهفقط، إذ قام هؤلاء العلماء بواجب التوجيه والإرشاد تشبهاً برسول الله، فكان لهم في ذلك أثر إيجابي. ويقول السعدي عن أحد العلماء في الوعظ والإرشاد وهو سيد علي التواتي: "...والمعلوم أنه لم يجد مسلكاً منه، فرجع إلى بلاد تنبكتو، وأحلف مع الباشا محمود الجيش كله على أنه لا يفر منهم أحد إليه ... فحلفوا على ذلك جميعاً، ثم جاء إلى سيد علي التواتي فوعظه وصبَّره وقال له: لا تخسر هذا الجيش ...، لأنه صائر إليك إن شاء الله... فترخي ورد على بن عبيد المذكور..." (السعدي، 1981، صفحة 79).

وقد كان العلماء والدعاة التواتيون يجوبون بلاد السودان الغربي فيستقطبون من يلقون بالقيم والأخلاق الفاضلة، والشعائر التي يؤدونها، وبأحاديثهم إلى الناس وتعليمهم ووعظهم إياهم، وكان الأمراء يتخذون شيوخاً من أهل توات يعلمونهم أحكام الدين ويقرؤنهم القرآن ويؤمون بهم الصلاة، ويبذلون النصح للمسلمين (عباس، 2001/2000، صفحة 92).

لقد كان لهؤلاء العلماء من توات دور في الحياة الفقهية في بلاد السودان الغربي، حيث يظهر حضورهم جلياً من خلال تصد رهم للإجابة عن أسئلة الناس وانشغالاتهم العلمية ، وتصدرهم للفتوى والتدريس وانشغالهم به، وهو الأمر الذي يدل على حضور العالم بين أفراد مجتمعه ووجوده فيهم، إذ بجوابه عن انشغالاتهم العلمية ومسائلهم الفقهية مساهماً في تبليغ الرسالة المحمدية وتنوير أمة الإسلام وتوجيهها إلى ما فيه خيرها من خلال القرءان الكريم والسنة النبوية. فسير وتراجم هؤلاء العلماء تنبئنا على أنهم اشتغلوا بالفتوى وتصدوا للمستجدات والحوادث والنوازل وأدلوا فيها بآرائهم واجتهاداتهم، ولم يسجل لهم عزوف عن الاهتمام بأمر الأمة خاصها وعامها (بلعالم، 2016/2015، صفحة 280).

يتبين لنا من خلال تلك الأدوار السابقة للعلماء التواتيين من تدريس في وقته وتوجيه في أوانه أنه كان لهم البالغ في منطقة السودان الغربي من الحفاظ على المذهب الفقهي المالكي، ودفاعهم المستميت على العقيدة الأشعرية عقيدة أهل الجماعة والسنة وتثبيت هذه العقيدة ومذهب أهل المدينة في المنطقة، حيث كان الدرس الفقهي والعقدي ينطلق منهما ومكرساً لهما ومحافظاً عليهما، حيث كانت دروس الفقه تتخذ من أصول المذهب المالكي وقواعده منطلقاً وأساساً، ذلك أن هذا المذهب هو الذي انتشر في الغرب الإسلامي عامة وفي توات خاصة، فكان لذلك الجهد التواتي آثار نادية في التعبد به والمحافظة على الأخلاق السامية والنبيلة، وفق ما أكده علماء السلوك في الأمة الإسلامية من خلال طريق الإمام الجنيد المستمد من القرءان الكريم والسنة النبوية، فكان الوعظ والإرشاد الديني نابع من هذه المبادئ السنية، وبذلت كل الجهود للمحافظة عليهما.

6. مكانة علماء توات في السودان الغربي:

لقد كان لعلماء توات مكانة خاصة لدى عامة الناس وأمراء وملوك السودان الغربي، وهذا راجع إلى الميزات والسمات التي كان يتميز بها العلماء التواتيون عامة، والموجودون في السودان الغربي خاصة، وهذه السمات صارت خلقاً من أخلاق العالم التواتي لا تنفك عنه وعنصراً مهماً لديه، فأصبح العالم التواتي يحظى بمكانة خاصة في المنطقة من

طرف عامة الناس ومن طرف الحكام في منطقة السودان الغربي، وقد أورد عبد الرحمن السعدي في كتابه العديد من السمات والخصائص لدى تعرضه لذكر هؤلاء العلماء التواتيين وتحدثه عن مكانتهم في المنطقة ومن بين السمات التي ذكرها السعدي في كتابه نذكر منها:

– العلم: وه و الصفة التي عرفت بها تلك الشخصيات من توات، ولم يكن عنواناً مزوراً لها أو عرفت به عبثاً وألصق بها بهتاناً وظلماً، بل كانت أحق به وأهلاً له، فقد صبرت من أجل تحصيله وجاهدت في سبيل أخذه ونيله، ورحل العديد من العلماء إلى البلاد البعيدة للفوز بهذه الغاية النبيلة (عباس، 2001/2000، صفحة 90). ولم يقنعوا بوصف العلم فقط عند هذا الحد ؛ بل اشتغلوا بالعلم كذلك بعد مرحلة الطلب مطالعة وتدريساً وتأليفاً وإفتاءً ، وفي هذا يجرد عبد الرحمن السعدي عند ذكرهم عبارات وألفاظاً دالة على ذلك وحاملة لهذا الوصف مثل: عالم، فقيه، الشيخ، تولى الإمامة، من أهل الصلاح والعبادة، وغيرها من العبارات الدالة على هذا الوصف الجميل (السعدي، 1981، الصفحات 58– 59)

– الخوف من الله وتعظيم شرعه: وهي من السمات التي تميز بها العلماء التواتيون وجعلت لهم مكانة خاصة لدى سكان منطقة السودان الغربي، وتعتبر هذه السمة غاية كل الأمور المحمودة والممدوحة، بل أنها غاية العلم والعمل الذي هو الخوف من الله تعالى باعتباره الفرقان بين الضلالة والهدى والفيصل بين الباطل والحق (جعفري، 2009، صفحة 274)، كما أنه دليل على توقير الشرع الرباني وتعظيم ما عظمه الله سبحانه والابتعاد عما يعارض الحق، وعلماء الأمة هم أقرب الناس إلى الحق فهم موصوفون به وهو صفة ملازمة لهم، وقد سجلنا أن السعدي عند ذكره لعلماء توات يؤكد على هذه الصفة وإن كانت بألفاظ وتعابير مختلفة، فنجده يقول: فلان تقي، ومن أهل الورع والصدق، الفاضل، الخير العابد، الزاهد، العابد (السعدي، 1981، صفحة 60)، وغيرها من الأوصاف والتعابير الدالة على ذلك لكل شخصية من تلك الشخصيات.

– التحلي بمكارم الأخلاق: تحلى علماء توات بالخلق الكريم إدراكاً منهم لقيمته، فكانت مكارم الأخلاق من أهم سماتهم التي يمتازون بها، هذا إلى جانب علمهم وخوفهم من الله، وهو ما يؤكده المترجمون بوصفهم لهؤلاء الأعلام بهذا الخلق الحميد ، حيث عملوا على تهذيب أنفسهم بتهذيب سلوكاتهم وأخلاقهم من طريقة أهل التصوف فتعددت العبارات والجمل التي ذكرها السعدي في هذا الوصف فتارة يقول: فاضل النفس، وأخرى: ولي الله تعالى، ومرة: أهل الصلاح والعبادة، إلى غيره من الأوصاف. كل هذه الأ لفاظ فيها اعتراف بما اتسم به هؤلاء العلماء في سلوكاتهم من أخلاق فاضلة وهمم عالية صارت وسماً ملاصقاً لهم.

فعن مكانة الشيخ العالم أبو القاسم التواتي لدى الملوك والأمراء في منطقة السودان الغربي يذكر السعدي أن السلطان الحاج موسى أسكيا كان يحرص دائماً بعد أداء الصلاة على التبرك به والسلام عليه مؤكداً ذلك في قوله : "... وصلى الأمير الجمعة فيها يوماً، فجلس بعد السلام إلى أن يسلم على الشيخ الإمام الشيخ سيدي أ بي القاسم التواتي،... فبعث أخاه ليعلمه بإتيانه للسلام عليه، فأدركهم في قراءة المدح، فوقف على رأسه ينتظر فراغهم، ... فلما تأخر اتبعه المرسول الآخر... فبعد الفراغ جاءه الأمير فسلم عليه وقرأ له الفاتحة..." (السعدي، 1981، صفحة 59). وهذا يدل على مدى الاحترام الذي كان يحظى به هذا الشيخ من طرف الأمراء والملوك.

ويذكر السعدي مكانة أبو القاسم التواتي في موضع آخر، حيث يقول: " ...وهو الذي ابتدأ قراءة الختمة في المصحف بعد الجمعة وحبس أمير المؤمنين الحاج محمد أسكيا تابوتاً فيها ستون جزءاً من المصحف في ذلك الجامع لأجل تلك الختمة، وبقيت تقرأ فيه إلى العام العشرين بعد الألف،... ثم غيرت بأخرى، حبسها المسراتي بن عبيدة، هي في الجامع إلى الآن..." (السعدي، 1981، صفحة 58).

ومن الأمثلة التي يرويها السعدي كدليل على احترام العلماء التواتيين من قبل العوام والخواص وتقديسهم لهم، ما وقع مع الباشا علي بن عبد القادر حاكم تمبكتو، لما هم القائد الفلاني بن عيسى الرحماني البربوشي وأصحابه الفتك به، لما تمكنوا منه في توات سنة 1041هـ/ 1632م، فاستنجد بالعالمين الفقيه التمبكتي أحمد بابا والفقيه القوراري أحمد بن عبد العزيز لمكانة الفقيه التواتي (السعدي، 1981، صفحة 60).

كما كان للشيخ أبو القاسم التواتي مكانة كبيرة لدى عامة الناس في السودان الغربي (جعفري، 2009، صفحة 243) حتى بعد وفاته، حيث طلبوا من أميرهم أن يولي ابنه عليهم بعد وفاة الشيخ أبو القاسم، وقدوم ابنه إليهم، لكن الأمير رفض أن يعزل إماما بعد توليته لينصب آخر، ويقول السعدي في ذلك: " ...وبعد موت الإمام سيدي أبي القاسم تواطأ أهل الجامع الكبير على العالم أحمد ولد نانا شرك، فرفعوا أمره إلى أبي البركات الفقيه القاضي محمود ...، وصار إماماً في الجامع. وبعد شهرين من إمامته جاء ابن أبي القاسم من توات، فذهب أولئك الجماعة إلى القاضي فقالوا: نريد أن تجعل لنا ابن الشيخ أبو القاسم إماما ..." (السعدي، 1981، صفحة 60). مما يدل على المكانة الكبيرة للشيخ في قلوب أهل السودان.

وللمكانة الكبيرة للعلماء التواتيين واهتمام أهل السودان بهم وتعظيمهم لهم حتى بعد وفاتهم، أنهم جعلوا قبورهم معالم بارزة يدفنون موتاهم بجوارهم تبركاً بهم، وفي ذلك يطالعنا عبد الرحمن السعدي قائلاً : "... وفي العام الخامس والسبعين بعد تسعمائة توفي جاره عمران، ... فصلى عليه، ودفن بالمقبرة الجديدة جوار الشيخ سيدي أبي القاسم التواتي". ويشير مرة أخرى بقوله: "... وفي سنة خمسة وسبعين توفي جدنا عمران السعدي في عشرين من شهر رمضان ....، ودفن في جوار الفقيه سيدي أبو القاسم التواتي ..." (السعدي، 1981، صفحة 61).

كما أن العلماء والأمراء السودانيين كانوا يدفنون إلى جانب العلماء التواتيين خاصة أبو القاسم التواتي، إذ يؤكد عبد الرحمن السعدي أن الشريفين بابا بن عمر الصقلي ومحمد الشيخ بن عثمان قبرا إلى جانب الشيخ أبي القاسم قائلاً: " ... ودفنا في قبر واحد إلى جانب الشيخ سيدي أبي القاسم التواتي..". وكذلك فعل بعض سلاطين السودان حيث يقول السعدي في ذلك: "... ودفنوه في مقبرة الجامع الكبير إلى جوار الولي الصالح الشيخ سيدي أبي القاسم التواتي، ... في يوم الخميس السادس من المحرم ..." (السعدي، 1981، صفحة 65).

وقد بلغ احترامهم وتقديرهم حد لا يضاهي علماء أي جهة أخرى في بلاد السودان الغربي، وشكل العلماء التواتيون نسبة كبيرة بين علماء وفقهاء غرب إفريقيا قارب النصف (جعفري، 2009، صفحة 273). وكانوا يعاملون بكثير من التقديس والاحترام. وكان من محبة السودانيين للعلماء التواتيين حداً لا يوصف، وذلك لما لهم من آثر بارز في المجال العلمي، وهذا ما تؤكده الرسالة التي بعث بها سلطان برنو (كاندي ولد جامشاش) إلى المشايخ الكونتيين والى كل إخوانهم من التواتيين يستنجدهم للقدوم إلى بلاده ويغريهم بعدم دفع الضرائب، والرسالة وثيقة مخطوطة عثر عليها

الضابط مارتان في توات ويقول فيها: " ...ومما يثير الدهشة – يقول لهم– كيف تركتم عادة أبائكم وعزفتم عن القدوم إلى بلدنا..." (مارتي، 1985، صفحة 34).

كل هذا يدل على المكانة الكبيرة التي كان يحظى بها علماء توات من عامة الناس وخاصتهم في بلاد السودان الغربي، وأنهم محل تقدير واحترام من الجميع، والمتتبع لما سبق يستشف مدى المكانة التي حظي بها العلماء التواتيين في إفريقيا الغربية، حيث كان الملوك والأمراء يقدمون لهم أكبر التحفيز والدعم لحثهم على المجيء للسودان. وذلك بفضل معاملتهم الحسنة وعزوفهم عن الحكم، والدخول في المشاكل السياسة.

7. خاتمة:

لقد حاولت من خلال هذا البحث أن أفتح نافذة صغيرة على تاريخ منطقة توات، وأسهم في كتابة تاريخها بكل موضوعية، انطلاقاً من تراث ومصادر السودان الغربي، ورغم ما قدمت من جهد أراه بعيداً لا يتناسب مع مكان وحضارة منطقة توات وعظمة الإنسان التواتي، الذي وبالرغم من جفاء الطبيعة وقسوتها إلا أنه تمكن من الإبداع والعطاء في شتى المجالات، مستغلاً العوامل الايجابية بالإقليم، جاعلاً من الإقليم مركز إشعاع علمي وثقافي، انتقل صداه إلى مختلف المناطق المجاورة خاصة الجنوبية منها، وقد تمكنت في نهاية هذه الدراسة إلى الوصول إلى عدة نتائج أهمها:

– اتخذ التواصل الحضاري بين إقليم توات والسودان الغربي شكلين هما رحلة العلماء التواتيين، واستقرار الجالية التواتية بالسودان الغربي، إذ كان لعلماء توات رحلات علمية منذ القرن 8هـ/ 14م.

– لقد كان لعلماء منطقة توات دور هام في نقل الثقافة الإسلامية إلى مختلف شعوب إفريقيا جنوب الصحراء، وفي بناء صروح الحضارة والتمدن، وفي ذلك يطالعنا معظم المؤرخين على دورهم ا لأساسي في قوة ونضج ممالك غرب إفريقيا الإسلامية.

– تميز علماء توات على أقرانهم بحركيتهم النشطة وتعايشهم مع السكان الأصليين، وانتظمت الرحلات التواتية إلى السودان الغربي بعد أن بعث ملك برنو إلى بعض العلماء البارزين للقدوم إلى بلاده ويؤكد انه سيسهر على أمنهم وراحتهم.

– لقد حظي علماء توات الذين انتقلوا إلى السودان الغربي بم كانة خاصة، إذ برعوا في شتى العلوم وذاع صيتهم في مختلف الأصقاع، واضطلعوا بدور كبير في نشر الثقافة العربية والإسلامية، إذ يؤكد عبد الرحمن أن العديد من العلماء التواتيين استوطنوا في تمبكو وكان محل تقدير واحترام الجميع.

– أثبتت الدراسة أن مؤرخو السودان الغربي لم يهملوا ذكر رواد الحركة العلمية من منطقة توات، والذين كان لهم دور في النهوض بالحركة العلمية في المنطقة، ومن أبرزهم عبد الرحمن السعدي الذي وقف في أكثر من محطة للتعريف بالعلماء التواتيين في الديار الإفريقية وإبراز دورهم والتعريف بفضلهم ومكانتهم.

– يجب على الباحثين العمل على التعريف بالعلماء التواتيين الذين بروزا خارج المنطقة، وتضمينهم ضمن كتب تراجم معاجم خاصة. وأرجوا أن أكون بهذه المحاولة قد أضفت شيء ولو يسيراً للتعريف بعلماء المنطقة ونفض الغبار عن إسهاماتهم العلمية.

8.الإحالات:

[1]– تأسست مدينة تمبكتو في بادئ الأمر في شكل رباط إسلامي على يد عبد الله بن ياسين على طرف الصحراء جنوب بلاد المغرب قرب نهر النيجر حول بئر ماء كانت تتخذه القوافل التجارية المارة وسط الصحراء سقاء لها ولإبلها، وكان قرب هذا البئر امرأة تسمى "بوكتو" فسمي المكان باسمها فقيل "تمبكتو"، وهي في لسان التوارق تعني مكان بوكتو، ثم عبر الأيام سمي المكان بـ "تمبكتو"، أما الحسن الوزان فيذكر أنها مدينة حديثة العهد بناها الملك "سليمان منسى" سنة 600هـ، تقدر المسافة بينها وبين توات تسعة وعشرون يوماً من أقبلي. أُنظر: (الوزان، 1983، صفحة 165).

[2]– أحمد بابا التمبكتي: (1556–1627م): يسمى بعالم التكرور، كانت شهرته كبيرة بمقدار ما كانت شهرة ابن خلدون في البلدان العربية على الخصوص، وكلمة التمبكتي هي نسبة إلى مدينة تمبكتو عاصمة الثقافة في السودان الغربي، نشأ في عائلة عرفت بالعلم والثقافة، ألف كثيراً من الكتب في ميادين النحو والفقه والتراجم على الخصوص فقد بلغت مؤلفاته أكثر من خمسين كتاباً، توفي بتمبكتو عام 1036هـ/ 1627م. أُنظر: (التمبكتي، 2004، الصفحات 120- 130).

[3]– جني: حاضرة من الحواضر العلمية في بلاد السودان الغربي، تأسست في القرن 2هـ/ 8م، وتعتبر ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية بعد تمبكتو وغاو، دخلها الإسلام في القرن 5هـ/ 11م زمن دولة المرابطين، لينتشر فيها في القرن 6هـ/ 12م بعد إسلام ملكها كنبر الذي جمع العلماء وأسلم على يديهم، وطلب من رعيته الذين لم يسلموا بعد أن يدخلوا في الإسلام، ويذكر السعدي أن هذا الملك عندما أسلم طلب من العلماء أن يدعو الله له ذه المدينة ثلاث دعوات هي: أن كل من فر إليها من بلده عسراً وضيقاً أن يخلفه الله يسراً وسعة ينسى بها بلده، والثانية أن يملأها الله من غير أهلها، والثالثة أن ينزع الله الصبر من واردها حتى يملوا فيبيعون ما معهم بناقص الثمن فيربحون فيها، فقرءوا الفاتحة على هذه الدعوات. يُنظر: (الدالي، 2002، صفحة 306).

[4]– كنكان موسى: سلطان مالي من أعظم السلاطين اشتهر برحلته إلى الحج، حكم في الفترة مابين (738هـ/742هـ)، (1337م/ 1341م) وهو من ابرز الشخصيات التاريخية في أسرة كيتا. أُنظر: (مؤنس، 2003، صفحة 07).

[5]– الفقهاء والعلماء: العلماء مفردها عالم ، وهي مشتقة من كلمة "العلم" أي عكس الجهل، وتعني هذه الكلمة في المعنى اللغوي العامل بما يعلم. وكلمة الفقهاء جاءت من "الفقه" الذي معناه اللغوي الفهم للشيء والعلم به، والعلم علم الشرع والدين بشرفه وفضله وسيادته على شتى أنواع المعارف، وقد جعله العرف مختصاً بعلم الشريعة التفقه فيها، وفي الأصل أن الفقه فهم إذ يقال فقه فلان في الدين أي فهم، ومنه قوله سبحانه :" ليتفَقَّهُوا في الدين " أي ليتعلموه ويفهموه. أنظر: (ابن منظور، د.س، صفحة 3083)

[6]– الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي: هو محمد بن عبد الكريم بن محمد بن مخلوف، يصل نسبه إلى الحسن المثنى ابن فاطمة الزهراء رضي الله عنها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولد الشيخ بتلمسان وتعلم فيها القرءان والفقه والحديث ثم توجه إلى مدينة الجزائر عند الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، ثم انتقل منها إلى مدينة بجاية، وأخيراً توجه إلى منطقة توات حيث حارب فيها اليهود وهدم معابدهم فيها. وخلال هذه الفترة انتقل إلى السودان الغربي وتواصل مع عدة ملوك وأمراء بها، وعاد إلى توات وتوفي فيها سنة 909هـ في مكان يحمل اليوم اسم زاويته بالقرب من بلدية زاوية كنته. يُنظر: (مقلاتي و جعفري، معجم أعلام توات، د.س، صفحة 340).

[7]– المسجد: المكان المخصص لإقامة شعائر الصلاة، أما الجامع فهو المكان الذي تؤدى فيه صلاة الجمعة بالإضافة إلى التعليم إلقاء الدروس وبالتالي تجتمع فيه أمور الدنيا والدين. يُنظر: (كعت، 1913، صفحة 121).

[8]– تواترت عدة أقوال حول بناء هذا المسجد، فتشير بعضها إلى أن هذا المسجد بني سنة 854هـ/ 1450م، في حين يرى عبد الرحمن السعدي أنه بني من طرف امرأة من قبيلة أغلال وحبَّست عليه أموالاً لتجديده، وقد زادت الشهرة الهندسية لهذا المسجد عن شهرة مسجد الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس، إذ تحول إلى جامعة علمية أفاضت بالثقافة الإسلامية على منطقة السودان الغربي، ويقول عنه السعدي: "... أما الجامع الكبير فإن السلطان الحاج موسى هو الذي بناه ا،.... وصومعتها في خمسة صفوف، والمقابر لاصقة فيها من الخارج في جهة المغرب واليمين، وهي عادة أهل السودان الغربي يدفنون موتاهم في رحاب مساجدهم و على جوانبها، .... وأول من تولى إمامتها ال علماء السودانيين كانوا أئمة فيها ....، وآخر الأئمة منهم الشيخ القاضي كاتب موسى...فخلفه في الإمامة والله أعلم جد جدتي لوالدي العالم الشيخ سيدي عبد الله البلبالي وهو والله أعلم أول من صلى من البيضان بالناس في ذلك المسجد...". يُنظر: (السعدي، 1981، صفحة 24).

9. قائمة المراجع:

- A.G.P, Martin, (1908) , Les oasis saharienne, Edition de l'imprimerie algérienne, Alger.

- Juiles, CAMBON (1897) , Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouestafricain LES OASIS DE L'EXTREME-SUD ALGERIEN, Paris.

- Mareio, vivaer, (1896) Au Sujete du Touat, libraiirie Michel Reuff, Alger.

– أحمد أبا الصافي، جعفري، (2000)، من تاريخ توات أبحاث في التراث، منشورات الحضارة، الجزائر.

– أحمد بابا، التمبكتي. (2004)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

– أحمد محمد، كاني، (1987)، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، طبعة الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

الهادي مبروك، الدالي، (2002)، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، دار الكتب الوطنية، بنغازي.

– بول، مارتي، (1985)، كنته الشرقيون ، (محمد محمود ودادي، المترجمون)، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق.

– جمال الدين، ابن منظور، (د.س)، لسان العرب، دائرة المعارف، القاهرة.

– حسن، الوزان، (1983)، وصف إفريقيا، (محمد حجي ومحمد الأخضر، المترجمون)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

– حسين، مؤنس، (2003)، ابن بطوطة ورحلاته، تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة.

– خير الدين، الزركلي، (2002)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت.

– عبد الرحمن، السعدي، (1981)، تاريخ السودان، نشر وتحقيق هوداس، باريس.

– عبد السلام الأسمر، بلعالم، (2016/2015)، الحياة الفقهية في توات، جامعة الحاج لخضر، باتنة.

– عبد القادر، زبادية، (د.س)، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

– عبد الله، عباس، (2001/2000)، الدور الحضاري لإقليم توات وتأثيراته في بلاد السودان الغربي من القرنين 9و 10هـ/ 15و16م، جامعة الجزائر، الجزائر.

– عبد الله مقلاتي، ورموم محفوظ، (2009)، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية، دار الشروق، الجزائر.

– عبد الله مقلاتي، ومبارك جعفري، (د.س)، معجم أعلام توات، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر.

– عمر رضا، كحالة، (1993)، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت.

– مبارك، جعفري، (2009)، العلاقات الثقافية بين إقليم توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ، دار السبيل، الجزائر.

– محمد الصالح، حوتية، (2007)، توات والأزواد خلال القرنين 12 هـ و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر.

– محمود فرج، فرج، (2007)، إقليم توات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

– محمود، كعت، (1913)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر هوداس ورولا فوس، باريس.

– مولاي أحمد، الطاهري الإدريسي، (2010)، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، د.ن، الجزائر.